وجهي المعفر بالتراب ...

قصة بقلم عفيف بهنسي

خرجنا جميعاً من ثكنة التدريب وكان اتجاهنا المدينة التي ما كان يسمح لنا بالنزول اليها الا يومي الخميس والجمعة ، اما في سائر ايام الاسبوع فكانت اوقاتنا ملكاً لغيرنا .

وعندما كنت اسير مع هذا السيل الهابط حثيثاً الى المدينة ، اذكر ان قدمي تثاقلت شيئاً فشيئاً وانني اصبحت منفرداً عن الجميع غريباً عنهم ، فلم اعد اشعر انني ارتدي زيهم ولم اعد اذكر شيئاً عن حياتي بينهم . انهم نموذج واحد في عدد كبير . وبت ارقبهم من بعيد ، بل كنت ارقبه من بعيد : ذلك النموذج المتكرر : انه الذراع التي تقوي لتثأر وتشتد لتنتقم ؛ انه الفكر الذي يزدحم بأمل واحد هو النصر العتيد ، انه القلب النابض لهوى واحد هو إزالة العار واسترداد الكرامه مع الارض المفقودة .

كنت ارقبه من بعيد وهو ينأى عني رويداً رويداً ، وكانت قدماي تأخذان بالتثاقل حتى اوشكت على الوقوف ، فتابعت سيري ، أريد ان انسى هذه الافكار والخواطر . ليس هذا وقتها ؛ انه يوم الخميس ؟ يوم اللهو والراحة ، وعلي ان اعيش هذه الصفة فيه ، فلأقلع عن تأملاتي التي تملأ تفكيري اثناء الاسبوع ، ولأبتعد عن تلك « الوطنية » التي نعتها احد الرفقاء « بالجوفاء » ، ولأتابع سيري لاحقاً بأصدقائي حيث يقضون ليلة الاسبوع الممتعة .

وسرت هابطاً المنحدر الجبلي الى بداية الشارع المؤدي الى المدينة ، وقد اطبقت فم تفكيري . الا انني لم استطع ان اصم اذنيه عن صدى كلمات ذلك الرفيق وحديثه عن « وطنيتي .. الجوفاء » .

ونبعت من اطواء ذكرياتي اصواته الباردة الهادئة وقهقهته البليدة الساخرة وهو يقول : « وباسم الوطنية يأكل فؤادكم الحقد وتعمى بصائركم شهوة القتل . وتثور اعضاؤكم لوحشيتكم الكامنة في صدوركم وتخفون ذلك كله وراء كلمة الحرب الشريفة وانتم تلعبون بأرواحكم لعبة رهيبة وعندما تعودون من ساحة المعركة غالبين كنتم او مغلوبين ، تنطلق من افواهكم صيحات الفخر والنشوة بعدد ضحاياكم من الاعداء ويبتهج اعداؤكم لنفس السبب ، يا الهي اي انسان هذا الذي يفرح للفناء » ..

تباً لهذا الصوت المتعالي كالفحيح ! انه يلاحقني كالشؤم مثيراً غضبي واشمئزازي . وقذفت الارض ساخطاً بصحيفة يومية كانت بيدي وتابعت طريقي اصفر بفمي لحن « شهرزاد » . انه اللحن الذي رقصت على انغامه تلك الغجرية السمراء في حانة الاسبوع الفائت – لقد كانت تتلوى في رقصتها وهي شبه عارية . وكانت تسير مع الموسيقى نغماً ، وتنثني وتراً يشتد ويرتخي فينطلق منه ذلك الايقاع الجنسي المثير ، ومن خلال اصابعها كان شعاع عميق ، من عينيها السوداوين ، لا يكاد يطل حتى يغيب ثانية بين الاعيب تينك اليدين ، العاريتين الا من سوار براق بقي رمزاً نابياً للمدنية الغريبة عن تلك الغجرية السمراء . وسوار آخر كان في قدمها اليسرى يعيد الى الذاكرة ، صورة الغاب والانسان الضاري – والجسد المتربع على عرش الحياة فيه .

كنت غارقاً في تلك الصورة المتحركة التي انبجست في خيالي تتراقص مع انغام « شهرزاد » التي اصفرها . لقد استطعت ان اتخلص من اصداء كلمات ذلك الرفيق ، لقد استطعت ان انتزع الجد من روحي واخرجها طليقة حرة خفيفة ، وقد بدا لي وانا اسرع الخطو ان اعدو ، وبدا لي ان باستطاعتي ان احلق ، ايضاً ، ان ارتفع عن الارض . لقد تخلصت من وجائب وبرامج وافكار . انني اشعر بالراحة اشعر بالطمأنينة ، إنها طمأنينة عارضة ولا شك ، ولكنني لا اريد ان تفلت مني ، اريد ان اتمتع بها حد الكفاية ، اريد ان انجو من قلقي ، من تضارب افكاري العملاقة ، من مشكلاتي مع ذاتي ، ومع العالم

وارتفع صفيري عالياً وازداد ارتفاعه حتى كأنني اردته ان يمنع عن طمأنينتي جميع منافذ الهروب ، وكنت انطلق بروحي مع ذلك الصفير ، كانت ارادتي تعمل بصورة خفية المثابرة على ذلك الصفير ، لأنني كنت عالقاً بتلك الفكرات مشدوداً الى كلمات ذلك الرفيق الخبيث اريد ان اجيب عليها ، اريد ان أثور من اجلها ، اريد ان اصفعه لتلك الاهانة البالغة التي يبادرني بها كلما عرضنا لتلك المشكلة ، واريد ان اقبله ايضاً من نفس الوجه الذي تلقى صفعتي ، نعم اريد ذلك ، ولذلك فانني اثور واغضب واضرب الارض بقدمي حانقاً ثم اتابع الصفير لكي انسى .

***

لحن شهرزاد الذي اصفره يذكرني بتلك الغجرية الرقطاء – انني ارى شفتيها المخضبتين بلون الدماء ، كيف تنفرجان عن اسنان بيض ، واراها وهي تعض على شفتها السفلى محاولة اجادة دورها الشيطاني .

لقد كانت تعض على شفتها تريد ان تعلمنا انها انسانة ، تريد ان تذكرنا بالحياء ... انها تستحي ، يا للغرابة !..

ما يزال الطريق طويلاً ، وأنا الآن في الشارع الرئيسي للبلدة حيث يزدحم المارة ، ويختلط الناس كمجموعة متنافرة من الالوان على مطشة الرسام . ومن آونة لأخرى يبرز من وراء الجموع ضابط او قائد ، اني لا اعرفه ، ان اشارته هي التي تدل عليه ، ومع ذلك يجب علي ان أحييه تحية لائقة .

عليّ ان احيي ذلك الضابط القادم من بعيد مع فتاته الغانية المتعلقة بذراعه ، وعليّ أن انسى الصفير اولاً . ان هذا سلوك مناف للعسكري . وارتفعت يدي بقوة تحيي ذلك الضابط الشاب وفي في ابتسامة غريبة ... ولكن قلبي كان يمتلىء حباً صادقاً لكل من يرتدي هذا الرداء الجميل .

وعندما تجاوزت ذلك الضابط قليلاً ، سمعت ضحكة رنانة عذبة تصدح من فم تلك الغانية المتعلقة بذراعه ، فالتفت اليها . لقد كانت تنظر اليه نظرة الاعتزاز والفرح ، انه الضابط المرموق الذي يشملها بحبه وقوته وكبريائه .

تابعت الطريق وانا اشعر بفرح مماثل لفرحها ، انني مثلها ، اريد ان

اتعلق بأمل كالمارد لا تصله حشرات الزمان ولا تطاله نسور الموت . لذلك سرت والابتسامة الساخرة ما زالت مرتسمة على وجهي !..

***

هذه هي الساحة الرئيسية . السيارات تروح وتجيء، والترام ينوء بركابه والمارة يتخطون الشارع سريعاً ، والمصابيح كرات بيضاء متناثرة على الجدران وعلى لافتات المحال التجارية تهيء للناظر مشهداً جنائزياً كئيباً .

وفي منتصف الطريق تمركز شرطي امام عمود يحمل في نهايته العلوية إشارتين متصالبتين، اشارة حمراء واشارة خضراء ، ولا ينفك يدير بيده هذا العمود فتدور الاشارات . هذه الاشارة الحمراء الآن ، ان الطريق خطر على السيارات الآتية، ثم هذه الاشارة الخضراء،ان الطريق مأمون الان . وهكذا يحل دوماً الاخضر مكان الاحمر ثم الاحمر مكان الاخضر .

كنت ارقب الشرطي وهو يدير بيده ذلك المحور بحركة اعتيادية وبدون اهتمام ، الاحمر ثم الاخضر ، الاخضر ثم الاحمر . ثم توقفت الاشارات فجأة عن التغير وبقي اللون الاحمر ثابتاً ، فتوقفت انتظر غيابه ولكن اللون الاحمر بقي محملقاً بي بوقاحة مرعبة . لقد ارهبني فعلا ، ويقيناً انني حجبت نظري لبرهة الا انه بقي قاسياً مفجعاً ، وخيل الي انه يقترب مني ويتضخم بسرعة ، واذا بي ارى كل شيء حولي بلون الدماء . وارتفعت اصوات صاخبة في اذني كأنها انفجارات وأزيز ودوي هائل . وبدت الساحة الرئيسية ساحة قتال يصطخب فيها النار بالدماء وتمتزج الانفجارات بالعويل ويختلط الهلع بالظفر الكريه . فوضعت اصابعي في اذني واغمضت عيني ، الا ان صيحات ذلك الرفيق كانت تخترق الضجيج كي تصل الى مسامعي ثاقبة مدوية ، فضربت بيدي في الهواء كمن يريد ان يتحدى شيئاً ، كمن يريد ان يتحدى قدراً ، وسرت الى الامام مسرعاً كأنني اريد ان اهرب من تنين كبير . والتفت الى اللون الاحمر ، كان قد زال وحل مكانه اللون الاخضر فاجتزت الطريق وانا اشعر بالفراغ المطلق .

ها هم اصدقائي ، انهم يملأون الشارع ، ها هما احمد وسامي ، سالتحق بهما « رويدكما ايها الشقيان خذاني معكما . » واستقبلني سامي بحرارة بالغة . انه صديقي في الحزب الذي انتمي له ، وهو حزبي متطرف متزمت ومع ذلك فقد كان يجب ان يصغي الى مفاهيمي الخاصة عن الحزبية ، واما احمد فقد كان يبدو انطوائياً سلبياً في تلك الليلة وكان يتصنع الحزن والتفكير ، كان شديد الشوق الى زوجته الصغيرة .

– لا بأس ستذهب معنا ؛ ولكن اياك ان تملأ الحانة صخباً وجدلاً ، ليس الوقت وقت الشعر ولا الحديث حديث فلسفة ، انها ليلة الجمعة نريد ان نطلق لإهوائنا عنان اللهو والمرح . اليس كذلك يا أحمد ؟..

قال سامي ذلك وهو يضحك بصوت مرتفع . ودخلنا الحانة . كان الجو فيها رماديا ، وكان وجه الحاضرين لا يكاد يرى بوضوح ، وكانت الاصوات تتعالى من كافة الاطراف والموسيقى تحرض الراقصين على الهرج والحركة . هوذا صديقنا فريد ! لقد احتجز كعادته اكبر قسم من حلبة الرقص ، انه عندما يرقص الجاز يخرج تماماً عن نفسه ، ان حركاته الصاخبة المجنونة تلذ لي ، انه يحاول ان ينسى ، ان ينسى العالم ، كما يقول .

وتسربنا الى زاوية بعيدة من الحلبة ، اذ ان الصالة كانت مزدحمة تلك الليلة، وكان اكثر روادها من العسكريين . وكان يخيم على تلك الزاوية جو كئيب ، وعلى المنضدة كان يوجد صحن مملوء باعقاب السجائر يدل على وجود اشخاص نزحوا قبل حضورنا ، وقرب ذلك الصحن كان يوجد مصباح كهربائي صغير ينبعث منه نور احمر ، فادرت وجهي حالا ومضيت الى الحلبة مسرعاً فانحنيت امام الفتاة الوحيدة التي كانت تحاول اشعال سيجارتها ، لقد اتت لتوها ، كما يبدو ، فرمت بسيجارتها ، وهي تحفي بعض الغيظ وقبلت مشاركتي الرقص بتكلف ظاهر .

لقد كانت جميلة جمالاً ظاهراً ، كان شعرها فاحماً وعيناها شرقيتين واسعتين ، وكان فمها ينم عن شهوة ازلية ، وانفها يفوح كبرياء ،ومن عنقها تدلى صليب ذهبي استقر عند ملتقى النهدين الشامخين كانه حارس وقف يحمي ذلك الجسد الاهيف عند مدخله . اما جسمها فقد اكتسى برداء ابيض براق ناسياً نفسه عند النحر والاعطاف منكشفاً حتى اسفل الظهر متحدياً بذلك عباد الجنس ، ملتصقاً بجسمها عند الكشح منضغطاً عليه عند الساق ، حتى لتشك في انها ترتدي ثوباً فتخفي عينك عن عارية عابثة ان كنت ممن يخجلون من الجسد !..

ولم تحافظ على صمتها وجمودها طويلاً لانني اتحت لها فرصة الحديث الخاص بها القريب الى نفسها ، فاستطعت ان اجعلها تطمئن لي وانا اشاركها الحديث بلسانها وبفكرتها وبأملها . كنت اتكلف ذلك حتما ، وكانت مهمتي المداهنة والمدح والاعجاب المستمر . ان النساء يتغذين بالاطراء ويتفتحن كالزهرة بالقبلات المخلصة الدافئة .

انتهى الدور الاول من الرقص وعاد الراقصون كل الى مكانه بعد ان حيا مراقصته باحترام في مكانها ووقفت انا امام الطاولة التي جلست اليها

الشعر العربي في المهجر الامريكي

•

دراسة أدبية جديدة في موضوع أدبي جديد

وهي الرسالة التي رفعها الاستاذ وديع ديب الى الدائرة العربية في الجامعة الاميركية ببيروت من اجل الحصول على درجة ماجستير في الادب العربي فاستحقت ثناء الاساتذة . واقل ما يقال فيها انها دراسة تجمع بين الطابع العلمي الرصين والاسلوب الفني المشرق .

تطلب من المؤلف ، بيروت ، ص. ب ٢١٤١

الثمن ثلاث ليرات لبنانية

مرافقتي ، لم استطع وداعها ولم استطع متابعة ما ابتدأ بيني وبينها ، انني اخشى ان اتركها ، اخشى ان اعود الى طاولتي ذات الضوء الاحمر . وفجأة ، طلبت منها ان ترافقني الى احد الاعشاش المنفردة ، فابتهجت لدعوتي وانطلقت معي كطفلة فرحة يوم العيد .

وجلسنا متلاصقين ، الا اني لبثت فترة طويلة صامتاً جامداً كالمقعد الذي اجلس عليه . لعلي كنت اشك بترحيبها لدعوتي . يا للحقارة ، انها لم تأت حباً بي لقد أتت رغبة بما سأقدمه لها من شراب فاخر . سخطاً لها !

وهزتني من كتفي صائحة : — بم تفكر ؟.. أبواحدة اخرى ؟.. تباً لكم معشر الشباب !

— وهل يهمك ان كنت افكر بك او بأخرى غيرك ؟.

— طبعاً فلئن كنت مشغولا بسواي فانني سابرح هذا المكان حالاً

— تبرحين هذا المكان ؟.!

— نعم ودون ان اكون ساخطة كثيراً .

— هوني عليك ، بل اني افكر فيك وحدك ، افكر فيك وكأن تفكيري بك لم ينقطع منذ الازل .

وانحنيت على يدها اقبلها متظاهراً بالنشوة والفرح والحب . فاقتربت مني وهي تشد يدها فرفعت رأسي لأرى ثغرها يناديني بشبق رقيق ففرقت بقبلة كثيفة كأنها شيء ربطني بها كما ترتبط عروقي ببعضها .

ونهضت بوجهي عن ثغرها ، لقد كانت كوردة قرمزية منداة ، وكانت عيناها مغلقتين والعرق ينضح من وجهها وهو يعكس نوراً شفافاً ، ورفعت بصري ! انه نور احمر معلق في السقيفة المجاورة ، فانتفضت مشيحاً بوجهي عن ذلك النور وقد حجبت وجهي براحتي ، فهبت من من مكانها كمن شعر بالاهانة المسمومة في اعماقه ، وحدجتني بنظرة فيها تساؤل واحتقار واتجهت نحو الباب ، ورفعت الستارة الا انها لم تخرج بل توقفت فجأة وادارت وجهها ثم عادت الي محتدة غاضبة .

— ما بك وماذا دهاك ؟ امجنون انت ؟

وشعرت اني قد اكون قد جرحتها بانتفاضتي المفاجئة ، فاشرت الى النور الأحمر مزمجراً : « لا اريد ان انظر اليه ، اطفئيه، اخمديه بربك. »

وجمدت مشدودة في مكانها وقد احتار على لسانها سؤال خجول ؛ إلا انها لم تقل شيئاً بل جلست بهدوء وهي ترقبني منتظرة تفسيراً لحالتي .

وكان يجب عليّ ان اوضح لها الامر . ولكن ماذا اقول لها ؟ أأقول انها صورة الحرب التي تلاحقني ، أأقول انني اخشى ثورة الانسان على حضارته ، ثورته على قوته وآثاره وتفكيره ، فانفر منها واحقد على مسبيبها ودعاتها ؟ .. ام اقول لها انني احبها لانها وسيلة الشرف الوحيدة ووسيلة الحق ، أأقول ذلك ؟. أأحدثها في هذا ؟ . انها لن تفهم من كلامي شيئاً ، سأضجرها بحديثي ، وقد لا يحسن ان تقضي امسيتها التي تنتظرها طيلة النهار بالحديث عن امور لم تحدث ، وليس لها بها كبير شأن .

نهضت اليها وأحطت خصرها بيدي ملاطفاً واعدتها الى مقعدها بجانبي وأنا اتطلع اليها بابتسامة جنسية اشاحت عن جونا ذلك التأزم الغريب المفاجيء . واقتربت منها شيئاً فشيئاً الا انها ابتعدت عني باسمة ، كأنها تريد ان تعتب على تصرفي دون ان تبدي شكاً بعاطفتي نحوها ، مما شجعني على ان اقفز اليها بلهفة جامحة ، وضممتها بقوة بين يدي وعصرت بين شفتي قبلة من فمها كان لها غير تأثير الخمر .لقد كان لها فعل الشيطان في الحيوان لقد اصبحت جسداً متوتراً هائجاً يريد ان يلتهم جسداً آخر بضراوة ووحشية .

كنت اتساءل دوماً عن معنى انسانيتي ، كنت اريد ان اعرف كيف يمكن ان اكون انساناً . واعترف الآن اني عرفت الجواب .

كانت صديقتي تتلوى بين يدي وقد الهبتها قبلاتي التي كانت تثير شهوتها بشكل عنيف، وكانت تستجيب لكل حركة جنسية ابديها وتستقبلها بلهفة وحشية .

لن افيض في تذكر تلك الليلة ، الا انني لن انسى الساقي عندما اطل علينا فجأة . لم اكترث له كثيراً ، ولكنني اضحك الآن عالياً من دهشته وشهقته المرتفعة عندما رآنا متعانقين نتمرغ على الأرض تحت الطاولة وبين المقاعد . وأضحك من بسمته التي استقبل بها وجهي المعفر بالتراب عندما امرته بالخروج .

كان كل شيء حولي يعكس ذلك النور الاحمر الذي كان يتسلل من السقيفة المجاورة، وكنت اشعر في تلك اللحظات انني من ذلك اللون . لقد كان كل شيء ايضاً يغني معي اغنية ذلك اللون . لقد اصبح ذلك اللون شيئاً ، لقد اصبح شيئاً مجسداً . لقد كان بي في ذاتي ، ام لعلي كنت إنا فيه ؟ . لا ادري . الا انني اعلم ان ذلك الاحمر اصبح وجودي كله لم اعد انفر منه ، اصبحت احبه ، لقد عرفت نفسي .

كان بودي ان امضي لكي اعلن في الشوارع وبصوت عال انني عرفت نفسي . كنت ارغب ان اذهب لتوي الى ذلك الرفيق . كنت اريد ان اصنعه أريد ان اهزأ من سخريته . اريد ان القنه درساً عن وطنيتي التي دعاها « جوفاء » ، سأقول له ان هذه الوطنية هي مني ، من حقيقتي، الوضيعة والنبيلة ، من غرائزي ومن سوّي ، من ضعفي وقوتي. انها انسانيتي ، انسانيته هو ، الانسانية جمعاء . سأقاتل لأن يديّ ملوثتان بالدماء منذ الأزل وسأتمرغ بالتراب لأن هذه هي اصالتي ، انني اعيش بحريتي ، وسأموت بحريتي . سيكون لحياتي ولموتي المعنى الذي تنشده انسانيتي ، اني لا افرح للفناء ، انني افرح للموت ؛ انه من صنيعي ؛ انه من حقيقتي لذلك اريد ان اقتل واريد ان احب ، اريد ان ابقى عالقاً بوجودي الاحمر اريد ان اعيش بملئي وأن انهل منه ، انها فرصتي من الوجود .

عفيف بهنسي

صدر حديثاً

عشر قصص عالمية

من اروع النتاج الغربي المعاصر

نقلها عن الفرنسية

الدكتور سهيل ادريس

دار العلم للملايين